قراءة في كتاب حازم صاغية «هذه ليست سيرة»:

نساء القرية انقسمن حول وسامة جمال عبد الناصر وكميل شمعون والجدة حسمت الامر لصالح ابو خالد

عن الطائفية والحرب الاهلية.. والتردد بين العروبة والقومية السورية.. والخمينية واخيرا الارتداد عن الثورية

عرض: سمير ناصيف*

■ يضعنا حازم صاغية في كتابه الاخير «هذه ليست سيرة»، الصادر عن «دار الساقي» في لندن، في الاجواء الصعبة التي يواجهها المثقف اللبناني والعربي في سعيه للالتزام السياسي والانساني في مجتمع يرتكز على الطائفية والاقطاعية ووراثة الادوار ولا يعرف الى أين يتجه.

ويضع الكاتب كل ذلك في قالب ساخر، مرورا بطفولته حيث تأثر بجدته وتعاليمها وتربيتها، ثم في مراحل انتقاله من منظمة ثورية الى اخرى، وبينها الناصرية والقومية السورية والشيوعية في لبنان، واخيرا في عمله في الصحافة في جريدة «السفير» اللبنانية قبل انتقاله الى موقعه الحالي في جريدة «الحياة» في لندن حيث تبدلت توجهاته بشكل كبير وصار ينبذ الفكر الثوري الايديولوجي.

وخلال هذه المراحل يقدم صاغية وصفا انسانيا مؤثرا للحرب الاهلية اللبنانية التي عاشها بشكل وثيق خلال عمله في «السفير»، واحس بالمآسي الانسانية التي احدثتها.

الكتاب، ليس كبيرا في حجمه ويروي حياة صاغية منذ طفولته وحتى بلوغه الاربعين، أي مباشرة قبل انتقاله الى لندن حيث اختارها مكانا لسكنه في السنوات الـ15 الاخيرة. وفي تلك المرحلة الاولى من حياته عاش صاغية في قرية في منطقة عكار الواقعة في طرف لبنان الشمالي في كنف عائلة مسيحية تقدمية قدمت احد ابرز افرادها خالد صاغية شهيدا حيث قضى برصاص الاقطاعيين المسيطرين على تلك المناطق وازلامهم.

ومن اكثر فصول الكتاب طرافة الفصل الذي يتحدث فيه الكاتب عن فترة وجد نفسه فيها في موقع قيادي في عائلته لم يكن جاهزا لاحتلاله، بحيث كان عليه ان يلتقي وجهاء القرية والمنطقة والرد على اسئلتهم بالطريقة التقليدية المعهودة، والقيام بالزيارات للزعماء الآخرين المؤيدين للموقف الوطني للشهيدالراحل (الذي كان خال حازم) واتخاذ موقف صارم من اجل التحقيق الفاعل في الجريمة، فيما كان هو يعيش في عالم آخر متأثر الى درجة كبيرة بالايديولوجيات الماركسية الغربية والقومية العربية التقدمية بحيث يدور النقاش في دماغه حول الصراع الطبقي وحل الجدليات بين اللينينية والتروتسكية، ومحاولة تجاوز واقعه الديني المسيحي في مجتمع اسلامي تقدمي. ويقول في احدى صفحات الفصل الاول من الكتاب: «هكذا كانت جدتي من سليلات دون كيخوته. ابطالها ليسوا مثقفي جبل لبنان وساسته العائدين من المنافي الفرنسية والمصرية، يلغطون بأدونيس وعشتروت وطائر الفينيق المنبعث من رماده... فشقيقها الذي كنت ادعوه خالي سليم، هو من أقدم، ذات مرة، على قلع شجرة ارز صغيرة كانت في حديقة البيت لأن الارز رمز لبنان والموارنة. وبعد سنوات، حولت شقيقتها جمال عبدالناصر روحا ووجها، يقاس بهما الجمال والبشاعة، الصواب والخطأ... وحتى رحيلها، في السبعينات، ظلت تسمي العملة التي تتداول «الليرة سورية».» (ص 13). ويقول في موقع آخر عن الموضوع نفسه: «فهي (جدته) ربما زوّجت المسيح الى (البطلة) الجميلة بوحيرد، المناضلة الجزائرية التي وصفت بالصمود في زنازين الفرنسيين، او ربما طلّقت امه مريم عن يوسف وعن الله معا، لتزوجها الى عمرو بن كلثوم.» (ص 16). ويتحدث في الفصل الثاني عن تأثير احداث المنطقة والعالم عليه وعلى اصدقائه وعائلته في القرية العكارية التي نشأ فيها، حيث يقول: «وما لبثت احداث الكونغو ان صارت شاغلا بيتيا. فأنا وعلي طالب كنا مطمئنين الى الاصدقاء الذين اورثتنا صداقتهم صداقة عبد الناصر لهم. فلم يكن تيتو ونهرو وسوكارنو ونيكروما مدعاة لقلقنا، يكفينا ان تذاع اسماؤهم وهم يزورون منشية البكري في القاهرة، او يزورهم الزعيم المصري في قصورهم، كي نحس ان الكون يسير بموجب الخطة المرسومة» (ص 24).

ايام احمد سعيد

وفي حديثه عن علي طالب، صديقه الذي نشأ معه، يصف وضعا مرّت به مناطق في لبنان وغيره من الدول العربية وشعوبها وشبابها خصوصا حيث يقول: «فهو (أي علي) كان يسمّر الترانزيستور الصغير على احدى اذنيه فيتنقل به هازا رأسه، متأسفا تارة وطورا يغالب الهيجان، وربما فوت القليل من نشرات الاخبار، إلا انه حتما لم يفوت ايا من حلقات البرنامج الذي اداه احمد سعيد ومحمد عروق واعطياه عنوان، «اكاذيب تكشفها حقائق»... ولإدمانه احمد سعيد، بات علي يردد الاوصاف التي يطلقها كما لو انها مسلمات مجمع عليها. فوزيرة خارجية اسرائيل عجوز شمطاء، والملك الاردني قزم عمان، وتشومبي ذنب الاستعمار وعميله، وهؤلاء كلهم سوف يتعرضون تباعا لحذاء ابي خالد» (ص 25).

وتبدو النزعة الساخرة في اوضح معالمها عندما يصف صاغية انقسام النساء في قريته حول وسامة عبد الناصر وجاذبية ندّه اللبناني الرئيس كميل شمعون، حيث يقول: «وبدا الانقسام على اعنفه بين النساء، فحسم بعضهن، بقيادة جدتي، بأن عبد الناصر الاجمل بلا قياس، ومالت الاكثرية الى انه شمعون الذي يشبه الانكليز.» (ص 27).

وفي وصفه لناصرية الجنبلاطيين خلال فترة اواخر الخمسينات، يقول صاغية: «فهم كما تبدّوا لي، لا يملكون الذاكرة والصور القومية العربية المزروعة في نخاعنا، ولا تحركهم اسماء خالد بن الوليد وصلاح الدين الايوبي وصحبهما. وقد تراءى لي ان حبهّم جمال عبد الناصر، مشروط ونابع من تحالف كمال جنبلاط معه، إلا انه مما لا ينجرّ عنه اكتراث لاوضاع جنوب اليمن او افتخاره بثورة الجزائر.» (ص 36).

ويقدم صاغية تحليلا عميقا للفوارق بين الجهات التقدمية والوطنية على الساحة اللبنانية في الستينات وبعدها، ولكنه يفعل ذلك في قالب ساخر ومتحسر في الوقت عينه.

من العروبة للقومية السورية

وفي الفصل الرابع، يتحدث الكاتب عن انتقاله من العروبة الى القومية السورية. ومع انه يصف الزعيم انطون سعادة مؤسس الحزب وقائده بنفس التهكمية التي يصف بها الزعماء الآخرين ويعتبره: «شخصية شابلينية (نسبة الى الممثل الامريكي تشارلي شابلن) سما به محازبوه الى مصاف رباني، فهو عندهم مثل داود النبي اذ يكلم الطير والوحش.» (ص 50)، فانه لا يتورع عن السخرية من ذاته ومن انتقاله من موقع ايديولوجي الى آخر، وكأن القضية مسألة تسوق في سوق للخضار، حيث يقول: «لكن بحثي عن وسط لم يوفره البعث، ولا وفرته الطليعة القومية كان يومذاك طاغيا، جرفتني قوته الى التزحلق شيئا فشيئا الى الدرك القومي. فحين اصطحبني بعض الرفقاء الى «امين» في الحزب (القومي) مشهود له باتمام العقيدة، بانت المعرفة العقائدية المنسوبة اليه وقد خانته تماما، (فجهله) لم يغير شيئا (اذ) لم تنقض غير اسابيع حتى وجدتني أقسم اليمين لسورية وسعادة.» (ص 50).

وبعد عام، يقول صاغية، ارسل استقالته الى الحزب فطردته قيادة الحزب لأن «الاستقالة ممنوعة منه عملا بتعاقد ابدي بين انطون سعادة والمقبل على دعوته.» (ص 53).

وفي وصفه (في الفصل الخامس) للطراز الخاص من الشيوعية الذي انتشر في لبنان في منتصف القرن الماضي، يتحدث صاغية عن شخص اسمه نعمان من ضيعته (قريته) قائلا عنه: «فنعمان شيوعي في حالة فولكلورية تقربه من «الرفيق سجعان»، كما صنعه المسرحي اللبناني جلال خوري. فهو ظن ان الشيوعيين وحدهم المسيحيون الصادقون، وان روسيا تتبع التعاليم الحقيقية للارثوذكسية (المسيحية) وانها كانت ايضا تتبع التعاليم الحقيقية للاسلام، وكل ما هو صالح وحق على هذه الارض.» (ص 56).

ويتحدث صاغية عن اساطير رواها الشيوعيون في القرية اللبنانية التي نشأ فيها، وربما في قرى اخرى، ومنها ان الزعيم الصيني الراحل ماوتسي تونغ قال مرة لعبد الناصر: «خذوا سكاكينكم، انتم العرب، وسيروا بملايينكم باتجاه اسرائيل، ولتقتل منكم ما شاءت، فالانتصار لكم في النهاية.» (ص 58).

ويتناول الرأي الآخر «الذي اشاعه العم ابو مروان من ان الصهيونية حركّت المتظاهرين في تشيكوسلوفاكيا (في اواخر الستينات) انتقاما من موسكو على تأييدها العرب.» (ص 59).

اما بالنسبة للعلاقة مع الفلسطينيين لدى ابناء الشمال اللبناني، في تلك المرحلة، فيقول الكاتب عنها: «وظلت الحماسة للمقاومة الفلسطينية الجسر الأقوى الذي يربط بالافكار... وفي منطقتي، في الشمال، بدا القرب من مخيم نهر البارد سببا خفيا في تمتين ربط كهذا. فأخبار المعاناة التي ينزلها رجال الدرك بأهل المخيم، كانت كثيرة التداول في بيتنا، كما شكّلت احد اسباب الادانة لكميل شمعون، ومن بعده فؤاد شهاب. اما في المرحلة التالية، فغدت فلسطين رافعة لما هو تقدمي وما هو ثوري... والسبب الفعلي الذي جذب امثالنا الى الماركسية لم يكن إلا تطلّب الكرامة التي تحضّ على تحرير فلسطين ومقارعة الغرب الامبريالي بعدما اخفقت العروبيات التقليدية في انجاز المهمة تلك.» (ص 60).

في لندن

واكتمل انتساب صاغية الى اليسار الماركسي بعد رحلته الاولى الى لندن للدراسة. وهناك ايضا، يصف الكاتب تلك الحقبة من حياته وحياة المجتمع الذي زاره بحساسية وكاريكاتورية تضع القارئ في الجو العام وتنتقل بهذا الكتاب ـ السيرة الى الحيّز المسرحي فيشعر وكأن الشخصيات التي يتحدث عنها صاغية ماثلة امامه على الخشبة وهي تتناقش فيما بينها حول النظريات المختلفة والايديولوجيات اليسارية المتباينة امام اعين المهاجر اللبناني «المسيّس» المشدوهة، فيقول: «لكن اكثر ما فاجأني هناك في بريطانيا، الوجود الكثيف لناشطين وناشطات يهود في المناسبات التي تخصّ القضية الفلسطينية. فما كانت لندن تشهد تظاهرة تنديد باسرائيل وبالرجعية العربية إلا كان شبان وشابات من «ماتزبن» (اليسار اليهودي المناهض لاسرائيل) في عدادها... اننا لم نرد ان تحرر فلسطين لذاتها ولا من اجل ردّها الى الملاكين الزراعيين الحسينيين والنشاشيبيين، ففلسطين كما انتقيناها واوصينا عليها، مدخل الى تحرير منطقة بكاملها.» (ص 62).

ولكن صاغية، الثوري اللبناني الذي يعشق التظاهرات الصاخبة والتي تتم فيها المواجهات، تضايق من تظاهرات لندن وطبيعتها السلمية المختلفة حيث يقول: «فكانت أعلى درجات النضال التظاهرة في شوارع لندن، تسير مؤدبة عموما وتطلق هتافات انكليزية مضجرة وغير موقعة، فيما يحيط بها رجال الشرطة من الجانبين، هادئين مراقبين. حتى الاجتماعات القليلة التي حضرتها اصابني معظمها بالملل، وانتابني برم مما تراءى لي تكرارا للبديهي او نقاشا في ما لا يغني ولا يسمن.» (ص 63).

ويركز الفصل السادس من الكتاب على مرحلة اغتيال خاله خالد صاغية «برصاصتين اخترقتاه من بعد امتار قليلة، بعدما حرّض احد بكوات المنطقة على قتله ردا على صراع اختلطت فيه السياسة بالدم». ويقول صاغية في وقع هذا الحدث عليه: «يومذاك اقترب الموت مني للمرة الاولى فاكتسب شكلا وهيئة ملموسين. واذ انهى ذاك الاحساس بالخلود الذي ينتاب اليافع، نشر الموت نفسه احتمالا راهنا. فهو وقد اقتصر من قبل على بشر بعيدين وعلى اسماء عامة لزعماء وممثلين ومفكرين، توقف عن تطوافه ليستقر في بيتنا. والحال اني لم اكن مهيأ بعد للموت الفعلي رغم اقامة الموت النظري في افكار احملها.» (ص 65).

وكثيرون مرّوا في مثل هذه المرحلة الوجدانية، ولا بد ان يتفاعلوا مع مشاعره في ذلك الاختبار بيد ان دور صاغية الاجتماعي تبدّل بعد مقتل خاله، اذ اصبحت العائلة تعقد الآمال عليه ليحتل الموقع القيادي النضالي ضد الاقطاعيين الذي كان يحتله الشهيد خالد صاغية، علما انه آنذاك كان يعمل في جريدة «السفير» التي انتسب اليها، بعد عودته من بريطانيا، وخلال تركيز مقالاته على الصراع الطبقي في لبنان ونضال مزارعي التبغ وعمال مصانع «غندور»، فضلا عن الثورة الفلسطينية وحركة التحرر العربية. ولعل هذا الفصل من الكتاب اجمل ما ورد فيه، أكان في الاسلوب الساخر او في وصف تلك المرحلة من تاريخ لبنان او في تفاعل انسان وجد نفسه في دور اجتماعي لم يكن مستعدا للقيام به، ألا وهو دور الزعيم الاقطاعي. وهنا تختلط الفكاهة بالواقع، وفي مثل هذه المناسبات يجود قلم حازم صاغية اكثر مما يفعل في اي ضرب آخر. ويصف الكاتب الزملاء والاصدقاء في «السفير» وتحول الجريدة بالنسبة اليه الى «اخوية نضالية» حيث كان وجود سلاح المقاومة الفلسطينية بالنسبة لهذه الاخوية يمنح الزملاء: «القوة الداخلية التي تكتمل يقينا مستحوذا علينا، نحن امراء النظرية الصغار، ومن امكنة قصية، كان ينهمر فيتنامين وكمبوديون وبرتغاليون وانغوليون يطبقون على الامس البائد ملوحين كنا بموعد تحت راية حمراء.»، ص 66). وعندما اراد الكاتب الانتساب الى تنظيم شيوعي ناشط في لبنان، اقنعه اصدقاؤه في العقيدة بأن فائدته ستكون اكبر اذا تحول الى شخصية وطنية تملأ الفراغ الذي خلفته وفاة خاله في منطقته. وهنا رسم صاغية لوحة مضحكة ومحزنة في الوقت عينه حيث يقول: «وحسب التصور الذي رسمه الرفاق، فان العناصر الأذكى والأشد راديكالية التي تلتف حولي، ستجد في زعامتي جسر عبورها الى المنظمة. وكان من شروط الشخصية الوطنية بضعة رشاشات زودتها كي اوزعها على الشباب ومعها مسدس خاص أعطي اليّ شخصيا. لكني لم اتخيل نفسي اربط المسدس بخصري، فكيف اتخيلني اطلق منه النار على شخص آخر، انعزاليا كان ام غير انعزالي؟ لم تطل بي الحيرة، فأودعته جرارا آمنا ثم تخلصت منه، في اول فرصة سنحت... وورائي سار مرافق، واحيانا مرافقان، تفصلني عنهما خطوتان، فكنت اتلكأ في السير كي اقصر تلك المسافة، كما يزداد اعوجاجي وانحنائي فلا يعود الجسد يطاوعني فيما اناكف صورة الوجيه الذي هو انا.» (ص 68 ـ 69).

وهنا يروي صاغية واقعة طريفة جدا سأله فيها احد زوار القرية من مؤيدي «الوجيه الجديد» عن رأيه في الانكليز. وتردد في الجواب، اذ كان ما زال يفكر انه من الخطأ التحدث عن الانكليز عموما من دون تقسيمهم الطبقي، مما ادى الى احراج والده الجالس في قاعة الاستقبال حيث رمقه بنظرة كأنها تقول له بأن ارساله الى الخارج اضاعه. كما كان «الوجيه الجديد» يسأل الزوار عن طبيعة اعمالهم لكي يصنفهم في منهجه الطبقي، ولكنه صُدم بأن «قلة قليلة هناك هم من الذين يعملون... فكان احدهم يجيبني بأن «الله ساترها» ويجيب آخر بأن المقهى قريب من منزله يقضي فيه معظم وقته.» وهكذا فقد انطوت زعامته على خلل عظيم وقد فاقم الخلل: «انني كنت حين يزورني وفد من قرية ما، اترك كباره واجالس شبانه الذين يقاربونني عمرا، لاقتناص الرفاق من اوساطهم، وهذه نقيصة تكفي لتدمير زعامة عريقة، فكيف بزعامتي التي لم ينبت لها ريش بعد؟ ثم انني خجلت بالتمايز وهم لم يريدوني إلا متمايزا، فأنا لم المس في شخصي القوة التي يتوهمونها فيّ، او يتمنونها لي كي تشعرهم بقوة ليست فيهم. فاذا دخلت بيتا، وسعوا لي صحن الدار فآثرت الجلوس في مكان غير متصدر.» (ص 70).

وبعد هذا الوصف الوجداني والاجتماعي الحساس لحالة المأزق التي وجد نفسه فيها، ينتقل صاغية الى الصعوبات التي واجهها في لقاءاته مع قادة «الحركة الوطنية» اللبنانيين وكبار حلفائهم فيقول: «رئيس الحكومة الذي زرته كي اطالبه بالحزم في تعقب قاتل خالي، باغتني بسؤاله: هل لديكم اسلحة؟ هل تعطيكم سورية سلاحا؟ وفيما انا متلعثم امام مسؤول يفوقني ربع قرن عمرا، قال: خذوا ما استطعتم من السلاح فالموارنة لا يؤتمن لهم.» (ص 70). ويعلق قائلا: «تافهة هي المعارك التي يكون فيها شخص كهذا عدوا، واتفه منها المعارك التي يكون فيها حليفا».

وعن دوره لدى اندلاع الحرب الاهلية في لبنان يقول صاغية: «وما لبثت الحرب اللبنانية واندلعت وغدونا جميعا مشروطين بحجميها، في كبائر الحياة وصغائرها، وكاد يقتصر دوري السياسي على اطلاق مخطوفين مسيحيين احتجزتهم منظمات فلسطينية في مخيمي البارد والبداوي، ودفع ضريبته مجادلات متحذلقة مع مسؤولي المنظمات تبدأ بالوضع الدولي وتنتهي باثبات براءة مخطوف... وحضرت بضعة اجتماعات لما كان يسمى احزابا وشخصيات وطنية وتقدمية، حيث يضع صادقون قلائل بين تجار ماشية ومهربين عبر الحدود السورية ـ اللبنانية... وصار السعي الى اطلاق المخطوفين يستغرق وقتا متعاظما من زملاء واصدقاء يستغربون الممارسات تلك التي تشوه صورة الحرب. ولم يراودنا يومذاك ان الاستغراب ليس في محله، اذ كيف لحرب بين الطوائف ألاّ تقوم على الطائفية، وكيف لها الا تتغذى على الخطف وما يشبهه من ممارسات؟» ص 71).

ومن هناك فصاعدا، يشن صاغية حربا على الحرب الاهلية اللبنانية وعلى جميع الحروب الطائفية في المنطقة واصفا حالة الانحطاط والوحشية التي وصل اليها الشعب اللبناني بسبب هذه الحرب والتي يصل اليها كل من يختار القيام بمثل هذه الحروب في اي مكان في العالم. وكان قاسيا وشرسا في وصفه للتجاوزات وسمّى حرب الفنادق «حرب تدمير قلب العاصمة وبتر شرايينها واحالتها اطلالا.» (ص 72).

وقال: «لربما أسّست يومذاك عبادة الشهداء والجثامين والخراب فيما كل واحد من التنظيمات يتباهى بشهدائه يبيع بهم ويشتري... أما بيروت في عمومها فأطّرت معلبات امنية طائفية حدودها حدود الانتصار الذي تحققه هذه الجماعة او تلك ثم تتسمر وراءها» (ص 72).

ومن هناك، ينتقل صاغية الى موقفه السياسي الحالي الذي يعارضه فيه كثيرون ويوافق معه عليه آخرون، مروّا في تجاربه. والموقف هذا يلخصه في الصفحة 81 من الكتاب حيث يقول: «ولم يستوقفني مثلا ولا استوقف حفنة من الصغار (نحن كنّا بينهم) بأن الاسلام اكبر واخطر من ان نستخدمه، نحن الذين انجزنا للتوّحلاقة ذقوننا لغرض غير غرضه... وما فعلناه كان يفعله آخرون في ايران ليبراليون او يساريون اكبر منا سنا وأوسع تجربة... ظنا منهم ان الثورة الدينية سوف تنقلب مهدا لديمقراطية عصرية او جسرا لبر امان اشتراكي، استهواهم الدور المركزي للدين في تعبئة الجماهير، والمواجهة بين اسلام تقدمي واسلام رجعي... وهذه اوهام شاركنا فيها مفكرون وصحافيون غربيون كبار استمالتهم نظريات توظيف الاسلام على انواعها كما لو كان الله عاملا لدينا ولديهم بالاجرة.» (ص 81).

ويعترف صاغية بأن الثورة الخمينية اثرت فيه بعد حرب السنتين في لبنان وعلى اثر خسارة «الحركة الوطنية» فيه، وبأنه قذف اليها لفترة، ربما بحثا عن القائد الأب الجديد الذي سيحل في مكان جمال عبد الناصر، ويقول في ذلك: «وهطل الخميني علينا، فمن الذي يسأل بعد ذاك عن موقف السيد الجليل من المرأة او الاصلاح الزراعي؟» ص 84).

وفي الفصلين الاخيرين، يتحدث صاغية عن حالة الغربة التي واجهتها عائلته خلال اقامتها في منطقة الاشرفية المسيحية، خلال بعض فترات الحرب الاهلية اللبنانية، ويصف شخصيات اهل تلك المنطقة بكاريكاتوريته المعهودة. ويتجلى في هذين الفصلين جانب اساسي من شخصية الكاتب ألا وهو بحثه المستمر عن الهوية بعدما ولد وترعرع في منطقة حدودية هامشية من لبنان وتربى تربية عربية عروبية، ولكن مسيحية ارثوذكسية في الوقت عينه، ثم اكتسب حساسية انسانية اوصلته الى الطور الاسمى (حسب المسيح ونيتشه) وهو طور الطفولة الصادقة بالاضافة الى الموهبة الادبية والمسرحية الخارقة.

غلاف الكتاب

* صحافي لبناني يقيم في لندن

يوميات عن «الحرب الاسرائيلية على لبنان»:

لست فدائيا استشهاديا... الحرب على بشاعتها مختبر للنفوس، فرصة لتنمية العريكة

صواريخ العدو سرقت النوم من العيون مثلما سرقت ارضا واختطفت حياة مئات الآلاف من شعبنا

فوزي منصور*

■ كتاب «الحرب الاسرائيلية على لبنان» للاستاذ عبد الاله بلقزيز ـ الكاتب المغربي المعروف ـ عبارة عن يوميات سجلها اثناء وجوده في بيروت عندما شنت اسرائيل حربها الغاشمة على لبنان وهو على وشك مغادرة لبنان عائدا الى المغرب لولا انه آثر البقاء لمشاركة اللبنانيين محنتهم عن تركهم والنجاة بنفسه.

والاستاذ بلقزيز اديب وشاعر ومفكر وناشط قومي ويمكن القول ان مرجعيته في كتاباته هي مجموعة من القيم المتمثلة في الحق والجمال والحب والكرامة والعدل والخير والوحدة. وهي بالنسبة له ارضية انطلاق واهداف بلوغ ايضا. ويمكن استخلاص ذلك من كتاباته عامة، ومن كتابه هذا خاصة. وجد نفسه شاهدا على حرب شنها عنصريون، فاشيون على لبنان. ومحاصرا داخل البلد مع باقي اهله بين ازيز الطائرات وانفجار الصواريخ والقنابل فوقه ومن حوله، فضلا عن حصار فعلي جوي وبحري وبري مطبق عليه يمنع الدخول اليه والخروج منه الى حد كبير. وهو مريض لا يستغني عن الدواء في مواقيته التي حددها الاطباء ان استغنى عن كسرة خبز وحبات من الزيتون لحفظ حياته. راح ليسجل ما يرى ويسمع ما يحس به ويشعر في غمرة الأحداث المتلاحقة المتسارعة، وفي نهار مضطرب ونهار مرعب، جعلت لبنان الجبل والغابة والجمال والمغاني والغواني يتحول على مدى اربعة وثلاثين يوما الى جحيم مستعر. لم تكن هذه اول تجربة له في حضور حرب على لبنان من بدايتها الى نهايتها، فقد سبق له ان حضر «عناقيد الغضب» الاسرائيلية عليه من قبل. كانت فرصة الهروب من الجحيم متاحة له في اي وقت، سواء عندما اجلى المغرب رعاياه، او بعد ذلك عبر المنافذ الخطرة على الحدود مع سورية. وكان يمكنه ان يتعلل بكبر سنه واعتلال صحته او التزامات خارجية وجميعها رخص متوفرة لديه. ولكنه لم يفعل. قبع يسجل كل التفاصيل، لا تفوته شاردة او واردة كل يوم وليلة، ولكأنه مراسل حربي من داخل اتون المعركة ويحلل ما يصل اليه كأي محلل سياسي مقتدر. ويجد نفسه الى جانب ذلك يعبر عن احاسيسه التي تضطرب في صدره نثرا وشعرا. وكانسان محاصر يتربص به الموت ليسجل كل مكالمة او رسالة تصله من صديق، ولأن الشيء بالشيء يذكر، او في محاولة الهروب من الواقع وما تحققه من مخاطر، وحتى لا تطير النفس منه شعاعا، ويتغلب عليه الخوف، يسترجع الذكريات المرتبطة بتاريخ اليوم، او بحدث وقع فيه على هامش الحرب كموت صديق او كاتب يعرفه، او بمقالة لكاتب ذكرته بمواقف سابقة له او ما الى ذلك بما في ذلك يوم ميلاد السيد حسن نصر الله الذي افرد لسيرته تسع صفحات والنفس تفضح عن ذاتها لحظات الخطر، وتبدي ما في داخلها من تناقضات. وهكذا تلمس في كتاباته كم هو صلب الارادة، ورقيق المشاعر في ذات الوقت، ومبدى الشجاعة والخوف ساكنه لا يبرحه وليس بمقدوره التخلص منه، وبين رجولة في منتهاها او كهولة في مبتداها، وطفولة بريئة عنيدة، عابثة، ذكية، شقية، مقيمة ابدا، لم ينجح الزمن والأنواء في ان يجرده من براءتها وحبها للحياة والناس.

وتراه دائما يمد حبال المودة لليساريين والليبراليين والناصريين والبعثيين والاسلاميين والقوميين والفنانين والفنانات والصحافيين واساتذة الجامعات، وان تخير من كل افضل من فيهم، يمدّلهم جميعا يده ويحملهم في قلبه اينما ارتحل، لا يفرق بينهم. يفرح بكل اتصال يأتيه من صديق، وهو محاصر في لبنان، فرحة طفل بلباس العيد. ويكتم الغضب والعتب على من نسيه او تناساه، فان تذكره وان متأخرا ينقشع الغضب ولم يعد ثمة مجال للعتب. ويعرب عن تقديره البالغ لاتصال اخواته اليومي به بينما انشغل عنه اخوته الذكور الى حين... وفي الحقيقة لو عرف محبوه وجوده في لبنان اثناء الحرب، واغلبهم لا تربطهم به علاقات مباشرة، اي من خارج دائرة اصدقائه ما اتسع وقته للرد على استفساراتهم عنه، رغم صعوبة الحصول على رقم هاتفه المحمول الذي اختص به افراد عائلته والقليل من الاصدقاء المقربين. وترك رقم منزله مشاعا لغيرهم لا يستجيب لاي نداء بسبب كثرة تحركاته داخل المغرب و سفرياته خارجه. لهذا كله سأركز على بعض الجوانب النفسية والانسانية المستقاة من كتابه.

يقول بلقزيز في مقدمة كتابه: هذه اليوميات مزيج من التسجيل الواقعي ومن الحديث عن الذات في خضم الموضوع، ومن الانطباعات الخاطفة والملاحظات السريعة. من يبحث فيها عن التحليل، تحليل ما جرى من احداث، فلن يجده هنا. ذلك مكانه مجموعة من المقالات السياسية التي كتبتها اثناء الحرب وبلغت عشرا. ومن يبحث عن الوقائع او المادة التوثيقية، فسيجد منها القليل واكثر القليل... الذي سيجده فيها ضافيا وطافحا هو البوح الذاتي او البوح بتفاعل الذات مع ما جرى. في المقام الأول شهادة دونها صاحبها عما جرى، اما ان وجد فيها قارئها تحليلا او تدوينا للأحداث، فذلك من النوافل...

لهذا آثرت ترك تلك النوافل والاكتفاء ببوح الذات، ليس للاعادة سرره، وانما لتحليله وتجلياته وخلفياته، بحثا عن استجلاء ما وراء البوح. ليس من قبيل التطفل على خصوصيات الكاتب، وانما البحث عن حكمة هي ضالة المؤمن بعد اخراجها من مجالها الخاص الى مجالها العام.

بعض ملامح المرجعية

يمكن لنا ان نستكشف بعض الملامح المرجعية السابق الاشارة اليها، مرتبة من حيث اهميتها، وذلك فيما دونه ضمن يومياته، في معرض نعيه لذاكرته التي نال منها الزمن، فيقول: فان الذاكرة القوية التي كانت ذاكرتي يوما حين خزنت القرآن الكريم، وخمسا من المعلقات، ونصف ديوان المتنبي، وعشرات قصائد ابي تمام والبحتري والمعري وابي فارس الحمداني، ومقامات بديع الدين الهمذاني وشعر شوقي وحافظ وعبد الوهاب البياتي وبدر شاكر السياب ومحمود درويش وامل دقل واحمد فؤاد نجم، ومئات من اغاني ام كلثوم وفريد الاطرش واسمهان وعبد الحليم حافظ، وشارل ازنفور وجو راسان وجاك بريل...الخ.

فقد عرضها الزمن للتلف بحيث لم تعد تقوى على تخزين اسماء طلبتي في الجامعة، وجاء هذا النص اثر ذكره انه لم يعد يحفظ من مسرحيات الرحباني سوى عشر بينما كان يحفظ من قبل ضعف ذلك. وبالطبع الكتب الفلسفية واللغوية والفكرية والمقالات ليست مادة للحفظ فلم يرد لها ذكر هنا... كما ان ما ذكره بالنسبة لمحفوظاته جاءت على سبيل المثال وليس الحصر، اذ لم يذكر فنانات نعرف ان لهن حظوة لديه مثل ماجدة الرومي او فنانين مثل مارسيل خليفة الذي اهداه كتابه هذا دون سواه. وعموما يمكننا ان نستنتج ان ثقافته عربية اسلامية بالدرجة الاولى وانه منحاز للغناء الذي فيه طرب وجمال في الصوت المؤدى وفي الألحان المصاحبة له، دون ان يمنع ذلك من اطلاع واسع على الفكر والأدب الغربي المترجم او باللغة الفرنسية، خاصة الفكر الاشتراكي والفلسفي، وما طرأ من مراجعات او تناولهما بنقد. وهو ما تكشف عنه اليوميات وكتاباته العديدة ايضا.

ولكن ما تأثير هذه المناهل الثقافية عليه؟ بالطبع هي ليست كل المؤثرات، فسنعرض لغيرها مما يكملها فيما بعد في صدور ما ورد باليوميات مع الاحتياط باحتمال وجود ما لا نعرفه بعد ولكن في صدور ما لدينا حتى الآن يمكن لنا القول ان «الحق» مستمد من القرآن الكريم، وان «الجمال» مستمد منه ومن الشعر والأغاني والموسيقى، و«الحب» له مصادر شتى اهمها ما يتعلق بالنشأة الأولى. وهو ما سنعرض اليه فيما بعد، و «الكرامة» مستمد من الإيمان الديني وما تعرض له في حياته و «العدل» و «الخير» تكاملت مصادرها الاسلامية مع الاشتراكية والفلسفة الغربية. أما «الوحدة القومية» فمصادرها شتى اهمها الحقبة الناصرية والكتابات البعثية. وهذا كله ذكر في اليوميات.

ما بين الموت وحب البقاء

سنجد فيما سجله في اليوم الثالث من الحرب، وصواريخ العدو وقذائفه المدمرة تهز ليل بيروت. وقد بلغ عدد الغارات حتى الثالثة صباحا خمس عشرة غارة، سرقت بها اسرائيل الحق في النوم، «مثلما سرقت ارضا واختطفت حياة مئات الآلاف من ابناء شعبنا» ولم يعد من السهل الخلود للنوم تحت قصف تهتز له اركان المكان ويضيف بلقزيز: «للانسان تعلق فطري بالحياة، يزيد منسوبه في النفس كلما زاد الشعور بخطر فقدانها. من الطبيعي اذن ان يلازمه الشعور بالخوف على الحياة. تلك جبلة جبل عليها منذ البدايات، ولا تبديل لنواميس النفس البشرية. قد يحدث ان يتطور ادراكه لمعنى الحياة والموت بتأثير فكرة كبرى، دينية، وطنية، انسانية، فيعيد تهذيب حاسة البقاء على نحو يحررها من ثقل الشعور الطبيعي بها. الذي يصبح شعورا مرضيا عند حد من سلطانه على النفس. من الصعب ان نقول: ان من يهب نفسه لموت فدائي او استشهادي فقد حاسة البقاء.

لست فدائيا استشهاديا، ولست حريصا حرصا مرضيا على البقاء حيا تحت اي ظرف. لكن، في نفس الوقت، لا ارفض ان انتهي شهيدا في حرب كالتي اعيش فيها، ولا ارفض ان اعيش بشرف. لكني أشعر بما يكفيني من الشجاعة كي اطرد الشعور بالخوف، كي انتقم من خوفي المزمن الذي لازمني في طفولتي، وجعل حياتي الغضة جحيما مع هواجس الأرواح الشريرة... في الحرب يصبح المرء اكثر شجاعة، اعرف ذلك. على الأقل هذا ما اشعر به الآن. وهذا ما شعرت به من قبل عشر سنوات حين عشت اجواء (عناقيد الغضب) الاسرائيلية على لبنان طيلة ستة عشر يوما منها. الحرب على بشاعتها وهول اهوالها مختبر للنفوس، فرصة للدربة وتنمية العريكة».

أختي كم أحبك!

في نفس اليوم الثالث من الحرب، يقول بلقزيز «من هناك ـ من مراكش ـ اسمع صوت اختي على الهاتف مشحونا بنبرات الخوف والرجاء، تطمئن علي وتدعو لي، احاول تهدئة مخاوفها ما استطعت.

امارس معها لعبة التهوين. اعرف انها لا تصدق. ولا تزدرد ضحكاتي. فالصور امامها على الشاشات والاخبار تفضح ما احاول ان اخفيه. لكني اقرر ان ابث فيها بعض القوة والتماسك. تقول لي: هلا عدت الى الديار؟...اقول لها ـ هذه المرة صادقا ـ ليس قبل ان تنتهي الحرب. اعرف انها تعرف عنادي.

وتحترم ما اعتقده. لكنني اعرف ايضا انها تخفي دمعتها عن اللسان، وانها بعد قليل ستطلق لها العنان. اختي كم احبك. كم احب اهلي كلهم. لكن ـ اعذروني جميعا ـ لا أملك الرحيل عن بيروت، يخبرنا بلقزيز بعد ذلك. ويقول: «اخواتي يحطنني بالاهتمام على تباعد بينهن في المكان. يمطرنني بالاتصالات والدعوات. قلب المرأة عظيم وحنانها الذي يدفىء النفس. وما زلت حتى هذا اليوم السابع من الموت والحصار، احتفظ ببعض أمل في ان اسمع صوت أخ من إخوتي يقتدي بأخته.. بأخواته».

لم تتحقق امنية بلقزيز سوى يوم الأحد 6 آب (اغسطس)، حيث تلقى اول اتصال هاتفي من اخيه المقيم في اكادير. ولكن يجدر الذكر هنا ان موقف الأخ لم يكن نتيجة جفاء او اهمال او جحود او نقص في الع